بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان في سورة الإنسان

١٠ / ١٧ / ١٤٤٤هـ

الحمد لله الذي أوجد الإنسان من العدم، وخلق البشر من القِدمَ، خلق فسوَّى، وقَّدر فهدى، أشهد أن لا إله إلا الله، أنزل آياتِه ليتدبرها أولُو البصائر والنُّهى، وأشهد أن محمدًا عبدُه المصطفى، والخاتَمُ المُجتبى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى، وسلم تسليمًا كثيرا إلى يوم المعاد المُرتجى، أما بعد:

قصة الإنسان.

سورةٌ من القرآن بيَّنت قصةَ الإنسان، من مُبدئه إلى خبرِه ومنتهاه، والغايةَ من خلقه ووجوده، ذكرت أطوارَ الإنسان ومراحلَه، وتشكُّلَه.

سورةٌ من القرآن اشتملت على حقيقة الإنسان، وبيان أصله وكُنْهِه، وردَّت على الملاحدة الزنادقة، وعرَّت أباطيلهم وآراءَهم في قضية وجود الإنسان.

سورةٌ من القرآن رسمت للإنسان طريق الخير وجلّت عن سمات الإصلاح، وحذرت من طرائق الشر، وأبانت عن العواقب والمآلات، فيها وعدٌ ووعيد، وترغيبٌ وترهيب.

سورةٌ ذكرت أوصاف الجنة بما يُشوِّق النفوس، ويُحفِّز الروح، قُرِئَت على أحد أصحاب النبي ﷺ فلما جاء ذكرُ الجنة زفرت نفسُه، وفاضت روحُه شوقًا إلى الجنة[1]، أتدري أي سورة هذه؟ إنها سورة الإنسان.

الإنسان حكايةٌ لأعظم ابتلاء.

نعم سورة الإنسان. ومن هو الإنسان؟ إنه الإنسان الذي هو مدار الكون، ومآل ما بَعْد الحياة، فالإنسان هو القضية الكبرى، وهو الابتلاء العظيم، فكونك إنسانٌ إيها الإنسان هو تشريفٌ من الله وتكليف، ولا شك أن التكليف ابتلاء من العظيم سبحانه؛ ولذا قال الله في أول السورة مبينًا هذا الابتلاء: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

(١) أخرج أحمد في الزهد، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٤٧٧٤)، وذكره السيوطي من أحاديث اللآلئ المصنوعة.

نَّبْتَلِيهِ ﴾، وبين الله عاقبة هذا الابتلاء فقال بعدها: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ الإنسان: ٣، فهو إن نجا من قنطرة الحياة فهو في سعادة أبدية، وإن تعثر وتبعثر، وتجبَّر واستكبر فهو في تعاسة سَرمدية، وبيَّن الله مآل هذا الابتلاء العظيم فقال بعد ذلك: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾

سورة الدهر.

تُعرَف هذه السورة أيضًا بسورة الدَّهر، لأنها أخبرت عن حالة غَيبيَّةٍ عجيبةٍ غريبة، لم يدْركها أحدٌ من البشر، إنها حالةٌ دهريةٌ طويلةٌ ممتدة، لم يُعرَف فيها الإنسان، إنها حالة العدم، حالة اللاوجود، قال الله تعالى عن هذه الحالة: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ دهورٌ مرَّت، وفتراتٌ تصرَّمت، والإنسان لم يكن شيئًا يُذكر في الخليقة؛ "لأنّه آخرُ ما خلقه الله من أصناف

الخليقة"[1]، كان الإنسان معدومًا، وكان قبله من المخلوقات ما لا يعلمه إلا الله، فهو طارئٌ على هذا الكون، دخيلٌ عليه، من آخر مخلوقاته.

ومع ذلك تجبَّر هذا الإنسان وتكبَّر، ورأى نفسًا حاكمًا على الأرض وتبختر، وما ذلك إلا لجهله وضعفه؛ ولذا بين الله هذا الضعف فقال في السورة نفسِها﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ نطفةٍ، ثم أمشاجٍ.

سورة الأمشاج، والرد على الملاحدة والملحدين.

وتأمل كلمة أمشاج التي لم تَرِد في القرآن إلا في هذا الموضع من هذه السورة،﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ والأمشاج الأخلاط: فهو من ماء مهين، مختلطٍ من الجنسين الذكرِ والأنثى، والدَّمِ والعلقة، فنسيَ الإنسان أصلَ خلقِه، وأنه من هذه الأخلاط، فكفر! وأنكر وجود خالقه! وقال: لا بعث ولا حساب، كما هم الملاحدة والملحدون في هذا الزمن، الذين نسو أنهم كانوا عَدَمًا، فأخرجهم الله إلى الوجود، فلما رأوا النور، اختاروا

(١) تفسير القرطبي (١١٩/١٩)

النكران والجحود، أولم يتدبروا أن الذي نقلهم من اللاوجود إلى الوجود قادرٌ على بعثهم وحسابهم، "فمن مقاصد هذه الآية ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ بيانُ مظهر من مظاهر قدرته- عز وجل- حيث أوجد الإنسان من العدم، ومن كان قادرًا على ذلك، كان- من باب أولى- قادرًا على إعادته إلى الحياة بعد موته، للحساب والجزاء"[1]، ومن هنا وصف الله هذه الفئة من الناس التي ظنت أنها خُلِقت للحياة، لا للآخرة، للفانية لا للباقية، فقال عنهم في هذه السورة: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلًا ﴾

اللهم اجعلنا من أهل الاعتبار والأبصار، وأنزل علينا موجبات رضاك عنا، واجعلنا من أهل التذكرة والادكار.

(١) التفسير الوسيط (١٥/١٩٨)

الخطبة الثانية: الحمد لله...

أيام الإنسان في هذه السورة.

وفي هذه السورة أخبر الله عن أيام الإنسان، وجعلها أربعةَ أيام، نعم. للإنسان مِن مُبتدئه إلى سرمديَّتِه أربعةُ أيام:

١- يوم العدم ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾، وها هنا سؤال: ما رأيك أيها الإنسان، هل تمنيت يومًا من الدهر أنك كنت في حالة العدم؟ وأنك لم تخلق نهائيًا؟ فإن كان هذا الخاطر قد جاءك يومًا من الدهر فما حامِلُه؟ وما دوافِعُه؟ وإذا أردت جوابًا شافيًا تأتسي به فاسمع جواب الصِّديقين: فمن تأملات أبي بكر-رضي الله عنه- في أيام العدم أنه لما تلا هذه الآية ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ قال: "ليتها تَمَّتْ، فلا نُبتلَى"، أي: تمنى أنه لم يُنقل من العدم إلى الوجود، وتمنى أن آدم لم يتكاثر ويخرج نسلُه، لِمَ؟ هل لكونه خسر تجارة؟ أو فقد محبوبًا؟ لا. وإنما أمنيته كانت؛ لأنَّ الدارَ دارُ ابتلاء، والأرضَ أرضُ مِحن؛ ولذا كان عمر أيضًا يقول: "ليتني لم أكُ شيئًا، يا ليتني كنت

نسيًا مَنسيًا"، وكان إذا سمع هذه الجملة من الآية ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ يقول: "يا ليتها تَمَّت"[1]، أي: ليتني لم أُخلق.

٢- يوم الوجود، وكيف أنشأ الله الإنسان على هذه البسيطة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾، ولما كانت حياة الإنسان كلمح البرق، لم يُطِلِ الله في تفاصيل هذه الأيام، لبيان قلتها وهوانها على الله، بل انتقل بعدها إلى بيان اليوم الثالث الذي فصَّل فيه كثيرًا.

٣- يوم القيامة، وقد وصفه الله في هذه السورة بأوصاف مُرِيعَة، وأبان عن وجهٍ لهذا اليوم عابسٍ شديد، فقال تعالى:

﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾، استطار واللهِ شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض. ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ أي: منتشرًا عامًا على الناس إلا من رحم الله، فاشيًا شرُه في السماوات فانشقت، وفي الكواكب فانتثرت، وفي الأرض فنُسِفَت، وفي الملائكة فَفَزِعت، وفي المياه فغارت[2].

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/١٢٠)

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٩/١٢٨)

وقال الله في وصفٍ آخرَ لهذا اليوم في نفس السورة ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ ، يومًا تعبس فيه الوجوه، وتُقَمْطَر فيه الأيام: أي تطول وتشتدُّ، حتى يكونَ مقدارُ ذلك اليوم خمسين ألف سنة!

وقال الله تعالى في وصفٍ آخرَ لهذا اليوم في نفس السورة ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ واليوم الثقيل يوم القيامة. وإنما سُمِّيَ ثقيلاً لشدائده وأهوالِه، وللقضاء والحساب فيه بين العباد[1].

فجمع هذا اليوم أربعةَ أوصاف: يومًا مستطيرًا، ويومًا عبوسًا، ويومًا قمطريرًا، ويومًا ثقيلاً، إلا من رحمه الله فخففه عليه، جعلنا الله من رحمائه وأصفيائه. فالبشرى للمؤمنين أنْ قال الله في نفس السورة ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ ، فالكافر يُلَقِّيه الله اليوم العبوس، والمؤمن يُلَقِّيه الله نضرةَ الحبور والسرور.

٤- اليوم السرمدي الأبدي، وهو اليوم الذي لا ينتهي، وليس له عدٌّ ولا حساب، وإنما خلود فلا موت، فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾، فهما طريقان لا

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٩/١٥١)

ثالث لهما: طريقُ كُفَّار، وطريقُ أبرار، ففصل فيه وأطال، وبالغ في بيانه مُرغبًا، ومُحفزًا النفوس إلى الابتدار والمسارعة للدار الآخرة.

صفات الإنسان في سورة الإنسان.

فبيَّنت هذ السورة صفاتِ الناجين، وأعمالِ المقربين، صفاتِ الإنسان التي تنجيه من الأهوال، فمن هذه الصفات العظيمة الكريمة: أنهم ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾، ويطعمون لوجه الله لا يريدون جزاءً ولا شكورًا، ويصبرون لحكم الله في شرعه وقضائه، ولا يطيعون آثمًا أو كفورًا، ويذكرون الله بكرة وأصيلاً، ومن الليل فيسجدون له ويسبحون ليلاً طويلاً.

أما الإنسان الكافر فوصفه الله بوصف يقضي على آخرته، ويكشف عن مدى تصوره وعقله، فقال عنه: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾.

ثم ختم السورة ببيان فضلها، وعلو كَعْبِها، وأنها من السور التي يقف على أعتابها المؤمن مُتأملاً مُتدبرًا، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ وكان ﷺ يُكثر من قراءتها في الركعة الثانية من صلاة الفجر من يوم الجمعة.

عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد